سياسة الدعوة وسياسة الادّعاء

راتب شعبو

يقرّ في أذهان أصحاب المشروع السياسيّ الإسلاميّ، وفي ذهن الجمهور الأوسع من عامّة المسلمين أيضًا، أنهم في نشاطهم وعملهم السياسيّ لإقامة نظام حكمٍ إسلاميّ (ما) إنّما يتّخذون من الرسول قدوةً ويحذوْن حذوَه. وسوف أدافع في ما يلي عن رأيٍ مفادُه أنّ منهجَ عمل هذه الجماعات، على اختلافها، يخالف جوهريّاً، وبخطٍّ مستقيم، منهجَ العمل الذي اعتمده الرسولُ لإظهار دعوته وبسطِها وإنفاذِها.

١ ـ اتّكأ الرسولُ على السياسة لكي يتمكّن من حماية دعوته والخروج بها على الناس ونشرِها؛ أيْ إنّه توسّل عناصرَ الدنيا كي ينقل عبرها وبواسطتها رسالتَه الدينيّة. فلم يكتفِ بالإبلاغ بما كان يصله من الرسالة، بل عَمَدَ في مكّة، ومنذ اللحظة الأولى، إلى خلق تنظيمٍ فريدٍ شكّل سابقةً حَيّرتِ القرشيين الذين لا عهدَ لهم بمثله. وكان هذا التنظيم ينبني على أساسين. **أولُهما** دينيّ يقوم على تصديقِ ما نزل على الرسول حتى إذٍ، والتسليم والإيمانِ المسبّق بما سوف ينزل عليه لاحقًا؛ ذلك أنّ الدعوة كانت حديثةَ العهد، لم تكن قد اكتملتْ، ولا تكشّفَ منها إلاّ أقلّها؛ وهذا ما يندرج في السياق الدينيّ. والأساس **الثاني** هو الالتزامُ بتعليمات الرسول وأوامره؛ وهذا ما يندرج في السياق السياسيّ المحض، وليس في شيء من صلب الدعوة الدينيّة. ويمكن القول إنّ الرسول اضطرّ إلى سلوك هذا السبيل «السياسيّ» ليحُول دون تحوّل دعوته إلى ظاهرةٍ عابرةٍ في تاريخ شبه الجزيرة العربيّة التي اعتادت الكثبانَ الرمليّة التي تراكمها الريحُ فتعلو ثم لا تلبث أن تذروها فلا قرارَ لها.

ومع نموّ الدعوة نما التنظيمُ في مكّة، وباتت الاحتكاكاتُ اليوميّة بين أفراد هذا التنظيم («المسلمين الأوائل») وبين باقي أهل مكّة («المشركين») تهدّد باندلاع أزمة أو قتال يشكّلان خطرًا على الدعوة برمّتها. فكان قرارُ الرسول بالصبر والمهادنة أولاً، ثم بأن يهاجر قسمٌ كبيرٌ من أفراد «تنظيمه» إلى الحبشة للتخفيف من تلك الاحتكاكات ودرءًا لمعركة قد تَنْشب قبل أوانها وتتحوّل إلى حرب داخليّة يكون وقودَها القرشيّون؛ وهو ما لم يردْه الرسول: فقد أراد للقرشيين أن يَدخلوا في الإسلام وافرين ليكونوا كما رآهم، وكما كان لهم، أسيادَ العصر الجديد الذي افتتحتْه الدعوةُ. وكان قرارُ الرسول نافذًا بصفته السياسيّة كزعيم تنظيم، لا بصفته الدينيّة؛ ذلك أنّ قرار الهجرة إلى الحبشة، ومعظمَ القرارات السياسيّة التالية، لم تكن أوامرَ سماويّةً جاء بها الوحيُ، بل تدابيرُ بشريّةٌ «سياسيّةٌ» لصيانة استمرار تدفّق الوحي إلى الرسول واستمرار تدفّقه تاليًا إلى قلوب عامّة الناس وعقولهم. وهي تدابيرُ كان الرسول يستشير صحابتَه بها، وينْزل عند رأيهم في الكثير من الحالات.

٢ ـ كان على الرسول إذنْ أن يقوم بدور الزعيم السياسيّ، ورئيس «الدولة» حين اقتضى الأمرُ منه ذلك في المدينة، فضلاً عن دوره الأساسيّ بصفته «المبلِّغَ والمذكِّرَ.» ولكنّ السؤال الجوهريّ هنا هو: أيُّ الدوريْن كان الناظمَ للآخر؟ أيُّهما الأساسيّ، وأيُّهما العارض؟

في التدقيق بهذا السؤال يمكننا أن نُمسك بالخيط الذي يوصلنا إلى إدراك انقلاب «الإسلام السياسيّ» على منهج الرسول باسم «الاقتداءِ به واقتفاءِ سنّته.» فمن الواضح لكلّ متتبّعٍ لسيرة الرسول أنه لم يكن يبتغي ملْكًا ولا منصبًا دنيويّاً على حساب دوره الرسوليّ، وإلاّ لقَبِلَ منذ البدء بما عَرَضَه عليه المغيرةُ بنُ شعبة باسم زعاماتِ قريش من تمليكٍ وسيادةٍ وثروة. الرسول هو، في البدءِ والمنتهى، متلقٍّ ومبلِّغ لرسالة سماويّة، وكلُّ ما سوى ذلك إنما هو أشياءُ عارضةٌ قياسًا إلى دور الرسول ونشر الدعوة: أشياء اقتضاها العملُ على إيصال الدعوة وإنفاذها. وكان الرسول قد شهد محدوديّةَ دور الوعظ والدعاوة في المحيط الاجتماعيّ الذي عاش فيه، حيث افتقر الوعظُ ـ مهما علا شأنُه وَسَمَتْ مراميه ـ إلى حاملٍ له، أيْ إلى تنظيمٍ يحْمله، كما كان مثلاً حالُ الأحناف الذين كانت دعواتُهم تذهبُ أدراجَ الرياح. فرأى الرسول أنّ نجاح الدعوة يستدعي التنظيمَ والانضباطَ ومركزيّةَ القيادة، أيْ يستدعي اعتمادَ العمل السياسيّ حاميًا وحاملاً للدعوة.

٣ ـ الدعوة الإسلاميّة الأولى استندتْ إلى سبلٍ سياسيّةٍ كي تقف على قدميها. وكان الرسول لا يتوانى عن تذكير أنصاره

اعتماد الحركات السياسية الإسلامية اليوم على دين منجز لنصرة سياسات معينة، تخدم غايات ومصالح دنيوية مختلفة، يعارض تماماً منهج الرسول في دعوته.

ومعارضيه بالثمار «السياسيّة» التي يمكن جنيُها من وراء الدعوة، فيَشْحذ في نفوسهم الهممَ الدنيويّة. فمِنَ الوعد بكنوز كسرى إلى العمل على مناوشة الروم، ومن مغازلة الزعامات الجاهليّة («خيارُكم في الجاهليّة خيارُكم في الإسلام») إلى تأليف القلوب: مسيرةٌ سياسيّةٌ دنيويّة، أراد الرسولُ بها تمهيدَ السبيل أمام الدعوة وإدخالَها في النسيج الفكريّ والنفسيّ للعرب وجعْلَ الدنيا تجرّ قاطرةَ الدين إلى محطة اكتماله. فكان خاتمُ النبيّين «يفتي» في السياسة ما ترى فيه عينُ عقله خدمةً لسيرورة الدعوة إلى الدين الإسلاميّ الذي كان في طور التكوين. ومعروفٌ كم كانت الدنيا، ولا تزال، تَسْرق العربيَّ من نفسه: فالقبائل، التي كان الرسولُ يَعْرض نفسَه عليها كي تحميه حتى يبين عن الله ما بعثه من أجله، كانت تَزِنُ العرضَ «الرسوليّ» دنيويّاً بميزان الربح والخسارة، ولم تهتمّ بأمر الدعوة بما هي كذلك. فحين عرض الرسولُ نفسَه مثلاً على بني عامر بن صعصعة، قال رجلٌ منهم: «واللهِ لو أنّي أخذتُ هذا الفتى من قريش لأكلتُ به العرب.» وسألوه أيكون الأمرُ لهم من بعده إنْ أظهره اللهُ على مَن خالفه؟ فحين أجاب الرسولُ أنّ الأمرَ لله يضعه حيث يشاء، رفضوا حمايتَه. إذنْ، الميزانُ الذي تعامل به العربُ مع الدعوة في بدايتها ميزانٌ **غيرُ** دينيّ، لا يبالي بمضمون الدعوة بل بجدواها الدنيويّة. فلا غرو، والحالُ كهذه، أن يجعل الرسولُ مكاسبَ الدنيا حافزًا لقومٍ لا يحفّزهم إلاّها.

٤ ـ ومهما كان من شأن الباحثين الذين يقلّلون من الدور السياسيّ للرسول، أمثال علي عبد الرازق في **الإسلام وأصول الحكم**،[١] أو يبالغون في رسم صورة الدولة «المكتملة والكاملة» التي أسّسها الرسولُ في المدينة، أمثال عبد المعطي محمد بيّومي في **الإسلام والدولة المدنيّة**، فالثابت أنّ السياسة هي التي نهضتْ بالدعوة، وأنّ دينمو الدعوة كان يدور بوقودٍ سياسيّ في الغالب، وأنّ وجودَ الرسول كان يشكّل ضمانَ عدم سيطرة السياسيّ على الدينيّ، أو بقاء الدينمو «السياسيّ» يعمل في خدمة الدعوة وتهيئة شروط استمراريّتها. ولكنْ ما إنْ غاب الرسول، بعد أن أعلن اكتمالَ الدين، حتى سيطرت السياسةُ على كامل المشهد، وراح المحرّكُ السياسيّ يعمل مستقلاً في الجوهر عن متطلّبات الدعوة الدينيّة لخدمة متطلّبات «تنظيم (أو منظّمة) الدعوة» إنْ صحّ القول: من الصراع «السياسيّ» على الخلافة، إلى حروب الردّة «السياسيّة،» إلى غيرها من شؤون الصراعات السياسيّة. ولعلّ من المفيد هنا التذكيرَ بموقف الصحابيّ الكبير عمر بن الخطاب من حروب الردّة: فقد أنكر على أبي بكر قتالَه المرتدّين قائلاً: «كيف تقاتل الناسَ وقد قال رسولُ الله ﷺ: أُمرتُ أن أقاتل الناسَ حتى يقولوا لا إلَه إلاّ الله، فمن قالها عَصَم مني ماله ونفسَه إلاّ بحقّه، وحسابُه على الله؟» وموقفُه صريحٌ من مقتلَ مالك بن نويْرة على يد خالد بن الوليد. ومن المفيد أيضًا التذكيرُ بأنّ آخرَ مَنْ أسلم من العرب على يد الرسول، أيْ أهلَ مكّة والطائف، هم مَنْ حملوا، في مفارقةٍ تلفت الأنظارَ، مع الأنصار لواءَ حروب الردّة، بعد أن أدركوا الآفاقَ السياسيّةَ التي تهيّئها لهم الدعوةُ.

٥ ـ في هذه المرحلة، أيْ بعد أن اكتمل الدينُ وانقطع الوحيُ بوفاة الرسول، انقلبت العلاقةُ بين الدين والسياسة. ففي حين كانت السياسة في خدمة الدين، بدأتْ تتكرّس علاقةٌ أخرى يعمل الدينُ فيها على خدمة السياسة، وبدأ تسويغُ الأعمال السياسيّة بالمبرّرات الدينيّة. ولعلّ أولَ ظاهرةٍ من هذا النوع كانت تسميةَ حروب الخليفة الأول التي خاضها حفاظًا على وحدة العرب المسلمين السياسيّة بـ «حروب الردّة،» للدلالة على محاربة المرتدّين **عن الإسلام**؛ في حين كانت هذه الحروبُ في

١ ـ للدقّة نقول إنّ عبد الرازق يسعى في كتابه إلى نقد فكرة الخلافة، منتصرًا، وبحقّ، لفكرة أنّ الدور السياسيّ للرسول خارجٌ عن دوره كرسول، وأنّ الرسول لم يكن مكترثًا ببناء دولة، وأنه استمدّ نفوذَه من سطوته الدينيّة اللاسياسيّة. على أنّ هذا كلام فيه نظر، وهذه الزاوية في تناول الموضوع تدفع في الواقع إلى التقليل من شأن العمل السياسيّ للرسول.

سياسة الدعوة وسياسة الادّعاء

جزءٍ كبيرٍ منها لمحاربة المرتدّين عن الانقياد **لغير رسول الله**. ذاك هو الخيطُ الذي ظهر غداةَ وفاة الرسول، وطال وامتدّ حتى يومنا هذا. فانقلب المشهد: من سياسةٍ غايتُها تهيئةُ شروط نقل الدعوة وإكمالها، إلى سياسة تبرِّر لنفسها بالدين؛ ومن دعوةٍ تعتمد على ما للسياسة من فاعليّةٍ وقوةٍ حشدٍ كي تنمو وتنتشر، إلى سياسةٍ تعتمد على ما للدين من قوةٍ وكرامةٍ مستحقَّةٍ في قلوب الناس كي تنموَ وتحشدَ وتصلَ إلى غاياتها؛ ومن دينٍ اعتمد على الدنيا، إلى دنيا تعتمد على الدين... ولكنها، في الحقّ، دنيا غيرُ الدنيا، ودينٌ غير الدين.

٦ ـ ولئن كان الرسولُ «يفتي» في السياسة بما يَخْدم نشرَ الدعوة والوصولَ بها إلى كمالها، معْرضًا من الدنيا عن كلّ ما لا يكون في خدمة الدعوة، ومتواضعًا في السياسة إلى حدّ التخلّي عن صفة «رسول الله» في صلح الحديْبية مثلاً، راضيًا بأن يوقّع الاتفاقَ باسم محمّد بن عبد الله خدمةً لمسيرة الدعوة وتمهيدًا لها... فإنّ الجماعات الإسلاميّة السياسيّة اليوم «تفتي» في الدين ما يساندها في تنفيذ سياساتها، معْرضة من الدين عن كلّ ما لا يكون في خدمة دنياها وغاياتها السياسيّة. وهكذا فإنك تجد ما لا يحصى من الفتاوى والاجتهادات الدينيّة التي تعْكس ما لا يُحصى من المصالح والأطماع الدنيويّة، الأمرُ الذي جعل الدينَ غلافًا للمصلحة، بدلاً من أن يكون جوهرًا روحيّاً بذاته يؤلِّف بين الناس وإن اختلفتْ دياناتُهم. والأمثلة على تعدّد الفتاوى الدينيّة الإسلاميّة السياسيّة أكثرُ من أن تُعَدّ، رغم استنادها إلى المرجع الدينيّ عينه وأحيانًا إلى المذهب نفسه: منذ أيام الشيعة والمرجئة والخوارج، والصراعات بين الجبريّة والقدريّة، وأهلِ الحديث وأهلِ الرأي، والمعتزلة والأشاعرة، وصولاً إلى اختلافات الأمس حول قضايا التأميم والإصلاح الزراعيّ بين الإخوان المسلمين في مصر وسوريّة، ثم اختلاف تيّار الخميني المعادي للشاه عن تيار شريعتمداري الموالي للشاه، إلى اختلافات اليوم بين نظرة التيّار الصدريّ في العراق ونظرة المجلس الأعلى الإسلاميّ في العراق إزاء الاحتلال الأمريكيّ، وبين رؤية زعماء القاعدة والإخوان المسلمين اليوم.. إلخ. ونحن بالطبع لا نذمّ الاختلافَ في السياسة ولا في غيرِ السياسة، بل نراه بالأحرى المظهرَ الطبيعيَّ للحياة السياسيّة وغير السياسيّة في مواجهة المظهر الممسوخ والفقير للحياة الذي يتّخذ شكلَ الرأي الموحّد. ولكنْ حين يُسْنَدُ الرأيُ، ولا سيّما السياسيّ، إلى الدين، و«يُفتَى» به من جهاتٍ وصائيّةٍ تزعم لنفسها عصمةً ليست لها، وتنطق عن الهوى، وتُقْحم المجالاتِ القدسيّةَ في المجالات الدنيويّة، فإنّ من شأن ذلك أن يحيل الاختلافَ إلى عامل انقسام وتفتيت وحروب أهليّة وغير أهليّة. وما يلفت النظرَ أنّ رجالَ الدين في وقتنا الراهن يُبْدون آراءهم بقطعيّةٍ وثقةٍ عجيبتيْن، إلى حدّ أنك لم تعد تسمع منهم تلك العبارةَ «الديمقراطيّةَ» الجميلةَ التي كثيرًا ما كنّا نسمعها من قبل، أقصد عبارة «واللهُ أعلم»: فهم ربما يجدون في هذه العبارة انتقاصًا من وثوقيّتهم وطعنًا في «عصمتهم»!

❖ ❖ ❖

مؤدّى الكلام أنّ اعتمادَ الحركات السياسيّة الإسلاميّة اليوم على دينٍ منجَزٍ، وتوظيفَ الطاقات الكامنة فيه، وهي بعدُ طاقاتٌ مشربةٌ بالطائفيّة والمذهبيّة، لنصرة سياسات معيّنة تخدم غاياتٍ ومصالحَ دنيويّةً مختلفةً بل متباينة، منهجٌ يعارض تمامًا منهجَ الرسول في دعوته. فقد اعتمد الرسولُ، في الجزء الأعظم من نشاطه، على فعّاليّة السبل السياسيّة وجاذبيّة المكاسب الدنيويّة لكي يهيّئ للدعوة سبلَ نموّها واكتمالها وديمومتها. ففي حال الدعوة الإسلاميّة، كانت للدعوة سيطرةٌ على السياسة، وكانت الدعوةُ هي الأبدأ؛ أما في حال الحركات السياسيّة الإسلاميّة فإنّ للسياسة موقعَ السيطرة والأولويّة، ويأتي الدينُ لنصرة السياسة عبر فتاوى تاليةٍ للمواقف والبرامج السياسيّة لا هاديةٍ لها في الغالبيّة الغالبة من الحالات.

دمشق

راتب شعبو
كاتب سوري.